

السياسة الفرنسية في الجنوب الجزائري وردود  
الفاعل الوطنية ما بين (1900 - 1930)

د. أحمد مريوش

جامعة بوزريعة .

الملخص بالعربية :

لم تكن الأطماع الفرنسية مقتصرة على منطقة الشمال فحسب بل كانت أبعد من ذلك وواصل القادة العسكريون سياسة التوسع والكشوف نحو مناطق الجنوب بغرض إتمام العملية الاستيطانية وتحقيق حلم قيام إمبراطورية فرنسية كما خطط له نابليون بوناپرت ، وذلك برغم المقاومة الشعبية التي عرفتها المنطقة الصحراوية ضد الفرنسيين .

ولإنجاح المشروع الاستعماري في الجنوب الجزائري استعمل الفرنسيون معاول هدم مختلفة كالتقطيع الإداري وتمكين الجيش وتعزيزه، وبناء أبراج للمراقبة وانتهاج سياسة ثقافية وتبشير بالمسيحية، وكذا برمجة سياسة اقتصادية و فرض العزلة على الأهالي.

وبالمقابل كانت ردود الفعل الجزائرية واضحة المعالم سواء عن طريق المقاومة والاستماتة، أو عن طريق المجابهة الثقافية والدينية وربط الحياة الفكرية بما كان يجرى في الشمال وكذا التنسيق مع دول الجوار وبالخصوص تونس التي ساهمت بالقدر الكافي في بعث وخدمة القضية الفكرية في الجزائر عن طريق الطلبة بجامع الزيتونة ونحوها من مؤسسات التعليم والصحافة ، وكل ذلك مكن من إحياء حركة النهضة الجزائرية التي عرفتها منطقة

السياسة الفرنسية في الجنوب الجزائري و ردود الفعل الوطنية ما بين (1900- 1930)

الجنوب وكونت منها لحفا مضادا لسياسة الاندماج ، وبالخصوص  
مع أواخر العشرينيات وبداية الثلاثينيات من القرن الماضي.

## المقدمة :

منذ أن وطأت أقدام جند الاحتلال الفرنسي أرض الجزائر حتى اندلعت الكثير من الانتفاضات و الثورات الشعبية في مناطق الشمال ضد الوجود الاستعماري المعتدي على حرمة الجزائريين ، وتجلى ذلك في مقاومة سكان إقليم متيجة بالوسط، ومقاومة الأمير عبد القادر بالغرب ، و الحاج أحمد باي بالشرق. وقد ظلت هذه المقاومة هي السمة المميزة للمقاومة الجزائرية خلال القرن التاسع عشر ، ورغم نهاية مقاومتي الأمير و أحمد باي المشرفة للجزائريين في العشرية الأولى للاحتلال، فإن ذلك لم يقلل من عزيمة المقاومة و ظلت مشتعلة . ومن ثمة فقد ظل الشعب الجزائري المسلم يعبر عن كيانه و صموده أمام معاول الهدم الفرنسية و احتفظ بمقوماته الأساسية و لم يركن لسياسة المهادنة، و لا للقوة التي راهنت عليهما الإدارة الفرنسية في الكثير من الحالات.

## أولا : التوسع الفرنسي في الجنوب ووسائل عمله :

ومما لا شك فيه أن صدى المقاومة في الشمال تعد حافزا هاما في يقظة سكان الجنوب، وأنها لم تكن بعيدة عن مسامعهم ، بل أدخلت تحولا في البنية الفكرية لسكان العديد من الواحات الصحراوية، التي أضحت هي بدورها فيما بعد معاقل من معقل الثوار يلتجئون إليها و يعتصمون بها . ويبدو أن هذا التواصل و التلاحم الذي ظل بين منطقتي الشمال و الجنوب من الجزائر هو

الذي دفع بالفرنسيين إلى الاهتمام و التوغل أكثر في مناطق الجنوب الجزائري عن طريق البعثات الاستطلاعية و الحملات العسكرية و الاستكشافية كبعثة الضابط الفرنسي فلانترس " Flatters " سنة 1879. (1)

وقد استهدف ذلك العمل بالدرجة الأولى تقوية النفوذ الفرنسي في منطقة الصحراء و ربط هذه المستعمرة بمناطق النفوذ في دول إفريقية، و من ثم إجهاض مد المقاومة الشعبية الذي وصل إلى تخوم الصحراء، و خصوصا بعد انتفاضة الزعاطشة بمنطقة بسكرة سنة 1849 و ثورة الشعانبة سنة 1853 ، وأولاد سيدي الشيخ سنة 1864 بالجنوب الوهراني و غيرها من الانتفاضات الوطنية التي تصدت للاستيطان الفرنسي و التي ميزت ردود الفعل الجزائرية خلال القرن التاسع عشر. (2)

والظاهر أن الاستعمار الفرنسي قد وجد صعوبة جمة في التوغل بداخل الصحراء نتيجة للعوائق الطبيعية القاسية من جهة ، وانتشار تيار الانتفاضة الشعبية التي كادت أن تغم أطراف الصحراء من جهة ثانية . و بغرض إضعاف هذه المواجهة الشعبية المستمرة أصدرت الإدارة الفرنسية مرسوما بتاريخ 24 ديسمبر 1902 ينص على بقاء المنطقة الصحراوية منطقة خاضعة للنظام العسكري، وعين عليها القائد العسكري "لابيرين" الذي اتخذ من مدينة عين صالح مركزا لقيادته العسكرية، و ذلك برغم حصول

منطقة الشمال الجزائري على تطبيق الحكم المدني تتويجا لمرحلة التهدة التي طبقتها الإدارة الفرنسية مع مطلع القرن العشرين. و ذلك خوفا من بروز ملامح النهضة الوطنية في الأفق.

### أ / التقطيع الإداري:

وللمزيد من سياسة التسلط و ضبط تلك التنظيمات الإدارية و العسكرية و التحكم فيها أكثر ، أصدرت الإدارة الفرنسية مرسوما آخرًا بتاريخ 23 ديسمبر 1909 ، أصبح الجنوب الجزائري بمقتضاه تابعًا مباشرة لسلطة ووصاية الحاكم العام في منطقة الشمال ، وقد نص المرسوم على تقسيم الجنوب إلى أربع مقاطعات رئيسية هي:

1/ - مقاطعة عين الصفراء و مقر حاكمها العسكري منطقة عين الصفراء .

2/ - مقاطعة الواحات و مقر حاكمها العسكري مدينة عين صالح .

3/ - مقاطعة غرداية و مقر حاكمها العسكري مدينة الاغواط

4/ - مقاطعة توقرت و مقر حاكمها العسكري مدينة بسكرة .<sup>(3)</sup>

وبهذا التقسيم الجديد حكم الاستعمار الفرنسي إقليم الجنوب الجزائري بيد من حديد ، و انتهج في ذلك طرقًا شتى منها: وسائل الترغيب و التهيب ، كما سطر لذلك العديد من

مشاريع الاستثمار لاستغلال المنطقة بشريا و اقتصاديا ، و التحكم أكثر في رقاب سكان الصحراء .

#### ب/ السياسة الفلاحية :

كما انتهج سياسة ملء الأرض الشاغرة بالمعمرين و تشجيع الاستثمار من خلال سياسة توطين الفرنسيين بالمنطقة الرامية لاحتلال الأرض و تعميمها بالأوروبيين .<sup>(4)</sup> من جنسيات مختلفة و ذلك على حساب تهجير الأهالي منها و لم يكتف المستعمر باستغلال السهول الشمالية الخصبة و الهضاب العليا، بل تعدى استيطانه إلى الأراضي البكر بعدما تحصل على ضمانات التشجيع المادي و المعنوي لمكوته بالمنطقة من الحكومة الفرنسية و استغلال هذه الأراضي على حساب أصحابها .

ولتحقيق ذلك الطموح سخر الفلاح الجزائري أيضا لخدمة المستوطنين الأوروبيين الذين أصبحوا يعيشون عيشة سادة و أشرف القرون الوسطى في أوروبا ، وقد عبر عن ذلك الوضع المزري أحمد توفيق المدني بقوله : " غير الفرنسيون وجه الأرض الجزائرية ، و محقوا فيها كل طابع عربي وطني ... واسكنوا بين طبقات الشعب المعدمة التي انتزعت أرضها، وسدت في وجهها كل أبواب الارتزاق... و فتحت لهم كنوز الأرض وما تحتها .."<sup>(5)</sup> .

ولعل من بين أهم المزروعات التي جلبت اهتمام فرنسا في الصحراء زراعة النخيل بأنواع التمور المختلفة، و زراعة القطن،

و المحاصيل الصحراوية خاصة الفول السوداني وتعد زراعة النخيل من بين المزروعات الفرنسية الواسعة في الواحات الجزائرية سواء عن طريق أخذها و تملكها بالقوة ، أو شرائها عن طريق الضغط، و خصوصا بعد اكتشاف الثروة المائية المتمثلة في المياه الجوفية التي يتربع عليها إقليم الصحراء ، وكل ذلك مكن من ارتفاع عدد أشجار النخيل بين سنتي 1907 و1908 من 4،717،525 نخلة إلى 4.866.033 نخلة أي بزيادة 148.508 نخلة سنويا ، وقد استمر التطور في بستنة النخيل حتى بلغ سنة 1918 بـ 7.585.375 نخلة .<sup>(6)</sup>

وتعتبر واحة بسكرة، و عين صالح، وتوقرت، وورقلة، و وادي سوف، من أهم واحات النخيل ، ويعد إنتاج التمور على مختلف أنواعها المورد الرئيسي في معيشة سكان هذه المناطق بالإضافة إلى بعض الزراعات المعاشية و تربية الإبل، وقد ظلت كل من ورقلة و وادي سوف وجنات وأدرار و بسكرة أسواقا مفتوحة نحو مدن الشمال، بل أصبحت تصدر غلتها إلى بلاد أوروبا و تذكر في ذلك بعض المصادر أن مر دودية التمور في المنطقة الصحراوية بالعملة الصعبة فاق مر دودية صادرات المعادن. و كانت التمور الجزائرية تصدر نحو فرنسا بل سوقت أيضا إلى كل من ألمانيا و بريطانيا و الدول الاسكندنافية<sup>(7)</sup> . و كثيرا ما كان يؤثر عامل التساقط على تدني إنتاج التمور وحتى باقي المزروعات في المنطقة الشمالية من البلاد ، مثلما عرفه شتاء وربيع سنة 1917 من هطول أمطار



غزيرة و رداءة في الطقس ، مع تساقط الأمطار الفجائية المصحوبة بالبرد الذي بلغ وزنه 750غ للحبة الواحدة بحسب ما ذكرته التقارير الفرنسية ، وكل ذلك أفسد الغلات الزراعية، و ألحق أضرارا بالتمور، وأدخل خلا في أسعار بيعها و الجدول التالي يوضح ذلك التضارب من الشهر للآخر<sup>(8)</sup> :

| السنة | نوع التمر  | شهر أوت     | شهر سبتمبر | شهر نوفمبر |
|-------|------------|-------------|------------|------------|
| 1917  | دقلة نور   | 110/90 فرنك | 150 فرنك   | 325 فرنك   |
|       | غرس        | 80 /45 فرنك | 100 فرنك   | 110 فرنك   |
|       | أنواع أخرى | 55/40 فرنك  | 100 فرنك   | 130 فرنك   |

ومما لاشك فيه أن تلك الاضطرابات المناخية التي عرفتها المنطقة قد تركت آثارها الوخيمة على الأهالي، إضافة إلى آثار و انعكاسات الحرب العالمية الأولى، و الأزمة الاقتصادية العالمية سنة 1929 ، وكل ذلك أثر سلبا، و ترك بصماته الواضحة على الوضعية الاجتماعية للأهالي، بعد الارتفاع المذهل الذي شهدته الأسعار في المواد الغذائية و نحوها عبر التراب الجزائري و خصوصا ما بين 1918 و 1926 ، إذ ارتفع سعر الخبز إلى 1.13 فرنك، و البطاطا إلى 2, 26 فرنك، و البيض إلى 3 فرنك، و لحم الخروف إلى 2.72 فرنك، و الدقيق إلى 2.37 فرنك ، و كانت أكبر مشكلة واجهت الأهالي يومها تتمثل في مادة الخبز. و هي المادة الأكثر استهلاكاً بين شرائح المجتمع ، بعد أن ارتفع سعرها سنة 1920 إلى 1, 50 فرنك

، هذا في الوقت الذي لم يتجاوز سعره في باريس 1 فرنك لا غير<sup>(9)</sup> و كل ذلك زاد من الفقر المدقع وسوء الأوضاع الاجتماعية للجزائريين، على حساب ارتفاع المستوى المعيشي المعمرين دون سواهم ، بعد أن سخرت لهم إدارتهم الظروف المريحة .

أما تربية المواشي فقد تمركزت في منطقة النجود و حواف الصحراء الغنية بنباتات الإستبس و الحلفاء و الزعفران و الشيح ، و تمثل تربية الأغنام و الماعزو الأبقار أحد اهتمامات المعمرين لأهميتها الاقتصادية سواء في اللحوم و الألبان أو الأصواف أو الجلود إذ وصل عدد رؤوس الأغنام سنة 1918 إلى أكثر من 1.672.471 رأسا. كما بلغت عدد رؤوس الماعز في نفس السنة 709.520 رأسا، أما الأبقار فقد وصل عدد رؤوسها إلى 520.057 رأسا من نفس السنة أيضا، و نفس الشيء تقريبا كان في تربية قطعان الجمال التي كانت تجوب مجاهل الصحراء لمميزاتها البيولوجية التي تتحمل العطش و العيش على النباتات الصحراوية و الشوكية و قد قدر عددها سنة 1918 ب 107.914 رأسا<sup>(10)</sup>.

### ج/ مد معابر التجارة مع دول الجوار :

و كانت الثروة الحيوانية هي الأخرى تصدر كمادة خام إلى البلاد الأوروبية عبر المسالك التجارية في منطقة التل من جهة، و عبر معابر الصحراء الجنوبية باتجاه بلاد السودان من جهة ثانية، عبر المسالك المعروفة لأهالي الصحراء ، و ذلك منذ القرون التي سبقت

الاحتلال ، و تعززت هذه الحركة التجارية أكثر بعد احتلال الصحراء لتتركز في الجهة الشرقية و تصبح لهذه التجارة أسواق في منطقة غدامس و طرابلس ، و كانت السلع المصدرة تتمثل في مواد السكر و الشاي و الصابون والشموع و التبغ و التمور ،مقابل استيراد الجلود المدبوغة و الأكياس و الأغطية و الأخشاب ، و قد وصلت أرباح هذه التجارة في الكثير من الأحيان إلى % 35 من قيمة التجارة الإجمالية للمنطقة .

وسوف نحاول هنا أن نضرب أحد الأمثلة حول المبادلات التجارية التي كانت سائدة بين منطقتي تديكالت و بلاد السودان ما بين سنتي 1907 و 1908 و الجدول التالي يوضح نوعية و قيمة السلع المستوردة<sup>(11)</sup> :

| نوع السلع | السنة 1907 | السنة 1908 | الفارق بين سنة و أخرى<br>على الأكثر<br>على الأقل |
|-----------|------------|------------|--|
| القطن     | 7450       | 16.585     | 9.133  |
| السكر     | 44300      | 25.500     | 18.800   |
| الشاي     | 3230       | 4.154      | 924  |
| الصابون   | 6590       | 7.189      | 596  |

من خلال هذه النظرة على المواد المصدرة باتجاه الخارج نجد أن الاقتصاد الفرنسي يعد هو المستفيد الأول من العملية التجارية، بعد عملية استصلاح الأراضي الزراعية الصحراوية ، و ذلك ما تشير إليه الكثير من الدراسات الخاصة بالزراعة

الصحراوية ، و منها الدراسة التي قام بها الأستاذ du cellier وهو أستاذ بالمعهد الفلاحي بالحراش، و التي وضح من خلالها أن المحصول الزراعي مع بداية العشرينيات كان جيدا للغاية بالصحراء الجزائرية ، إذ بلغ سنة 1920 أزيد من 500 طنا ، و كل ذلك مكن من تشجيع أحد المستوردين الفرنسيين خلال تلك الفترة من تصديره باتجاه أسواق فرنسا.<sup>(12)</sup>

و في ذلك الشأن تشير أيضا بعض المصادر الفرنسية أن الأراضي الصحراوية هي أيضا صالحة لزراعة الحبوب سواء القمح الصلب أو اللين ، وبذلك نجد هذه الزراعة قد انتشرت على نطاق واسع ، و أخذت هذه الحبوب بعض التسميات كقمح القس دوفوكو.<sup>(13)</sup> وكل ذلك زاد من الاهتمامات الفرنسية بتطوير الزراعة الصحراوية ونشرها على نطاق واسع .

#### د / السياسة الثقافية و الدينية :

هذا عن بعض الأنماط الاقتصادية التي كانت سائدة في منطقة الصحراء ، ترى كيف كان الوضع الثقافي و الديني في المنطقة؟ يبدو أن الميدان الثقافي و الديني لم ينجوا هما الآخران من الروح الصليبية ، إذ حاربت الإدارة الاستعمارية التشريع الإسلامي ، بعد أن شعر الفرنسيون أنهم ما لم يسيطروا على القضاء الإسلامي ، فإن شخصية الجزائر تظل قائمة و المقاومة بمختلف أشكالها تظل مستمرة ، فالقاضي هو رمز السلطة الشرعية و الساهر على

تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية، و بإمكانه من هذا الموقع أن يعارض السلطة و يدعو إلى التمرد ضدها.<sup>(14)</sup> و تحسبا لكل ذلك أصدرت الإدارة الاستعمارية العديد من المراسيم التي تلغي الاحتكام للقضاء الإسلامي، و منها مرسوم 1875 الذي ألغى المجلس الأعلى للقضاء الإسلامي، و جعل من المحاكم الإسلامية أدوات لتسخير القوانين وفق المصالح الاستعمارية، و تابعته مراسيم أخرى كالمرسوم الصادر في 25 ماي 1892، و الذي نص على تضيق الخناق على مهمة القاضي المسلم<sup>(15)</sup> و حدد تعامله مع دعاوى الزواج و الطلاق و المواريث و لم يترك للقاضي المسلم ما يصدره إلا تنفيذ ما يمليه عليه القضاء الفرنسي. و كان جهاز القضاء بالمناطق الصحراوية موزعا كما يلي<sup>(16)</sup> :

| المناطق     | محاكم رئيسية | محاكم ملحقة | قاضي | باشاغا عدل | عدل | ملاحظة               |
|-------------|--------------|-------------|------|------------|-----|----------------------|
| عين الصفراء | 9            | 2           | 9    | 11         | 13  | توجد 7 محاكم         |
| غرداية      | 14           | "           | 14   | 15         | 16  | في جهات              |
| توقرت       | 10           | "           | 10   | 12         | 12  | غرداية               |
| الواحات     | 1            | 1           | 1    | 2          | 2   | تحكم بالمذهب الإباضي |

و نظرا لخصوصيات سكان منطقة وادي ميزاب، فإن الحاكم العسكري بالإقليم أبرم معاهدة مع أهالي المنطقة كي يحافظوا على خصوصياتهم، و حكم أنفسهم بنفسهم ، و لو أن ذلك ظل سوريا، و في سنة 1882 تم الاستيلاء على المنطقة الميزابية و أدخلت بها مؤسسات عسكرية و ثقافية بغرض الاستمالة و الذوبان، إلا أن التركيبة الاجتماعية و الدينية للميزابين حالت دون ذلك ، و بالخصوص هيئة العزابة التي ظلت محافظة على كيانها و خصوصياتها و قامت بدورها كاملا في لم شمل المجتمع و الحفاظ على مذهبته بل و تصديها لسياسة المسخ الثقافية التي رسمها الاستعمار بهدف إدماج الجزائريين في المنظومة الاستيطانية .<sup>(17)</sup>

وإذا كان الميزابيون قد حافظوا بعض الشيء على خصوصياتهم فإن البعض من سكان الصحراء مع طول مدة التواجد الفرنسي في المنطقة قد تأثروا تأثرا سلبيا، و قد اتضح ذلك على سلوكيات بعض سكان المنطقة ، و خصوصا من الوجهة الثقافية و الدينية بعد أن قلصت الإدارة الاستعمارية من المفعول الديني و الحد من صلاحيات التشريع الإسلامي و التقليل من مهام المحاكم الإسلامية و غلق بعض دور التعليم الديني و لعل الجدول المرفق يوضح ذلك الفرق مع الجدول السالف الذكر :

| ملاحظة                          | عدل | باشاغا<br>عدل | قاضي | محاكم<br>ملحقة | محاكم<br>رئيسية | المناطق        |
|---------------------------------|-----|---------------|------|----------------|-----------------|----------------|
| 7 توجد<br>محاكم<br>رئيسية في    | 9   | 9             | 8    | 1              | 8               | عين<br>الصفراء |
| جهات غرداية                     | 16  | 15            | 14   | "              | 14              | غرداية         |
| تحكم<br>بالمذهب<br>الإباضي (18) | 14  | 12            | 9    | "              | 9               | توقرت          |
|                                 | 2   | 1             | 1    | "              | 1               | الواحات        |

هكذا إذا كان موقف الإدارة الفرنسية من القضاء و التشريع الإسلامي، ترى كيف تعاملت الإدارة الفرنسية في منطقة الصحراء مع الحركة التعليمية العربية و الإسلامية ؟و ما هو موقفها من نشاط الزوايا المنتشرة في ربوع أقاليم الصحراء ؟

لقد عدل الاستعمار الفرنسي نوعا ما عن سياسته التعليمية مع مطلع القرن الماضي ولو أنه استهدف بذلك تكوين تفكير جزائري اندماجي مستوحى من مشروع جول فيري التعليمي و المستمد من سياسة الكاردينال لا فيجري ، و البعيد كل البعد عن أصالة الشعب الجزائري ، و كانت تلك السياسة تهدف إلى تكوين شريحة طلابية تفكر وفق مناهجه الاستعمارية ، حسب تعبير لا فيجري نفسه بقوله :« ليس الهدف من فتح المدارس في شمال إفريقيا هوان نكون عقولا مثل عقول فولتير أو مونتيسكيو

أو جان جاك رو سو ، إنما الهدف ببساطة هوان نبدال لغة بلغة ودين بدين وعادات بعادات و تقاليد بتقاليد (19)

ومن تم عمل الاستعمار الفرنسي على مسح التراث الجزائري وتشويهه بعد محاربة اللغة العربية واستبدالها باللغة الفرنسية التي أصبحت رسمية في الإدارة الجزائرية ، و قد شجعت الولاية العامة على توسيع دائرة التعليم الفرنسي في الجنوب قصد إدماج فكر أهلها بعدما أطفأت فيه وعيه و ثبتت في ذهنه أفكارا دخيلة بواسطة الترغيب و الترهيب و غرست فيه عادات جديدة في التفكير والشعور والعمل . (20)

و كانت السلطة الفرنسية في الشمال منشغلة بضرورة إدماج منطقة الجنوب ، فعلى سبيل المثال استفاد إقليم منطقة غرداية سنة 1892 ب 5, 12 في المائة من الأقسام المخصصة للتدريس . (21) و لعل ذلك ما أشارت إليه تقارير مديرية التربية بالجزائر العاصمة و التي لم تستثنى من برامجها و اهتماماتها موضوع تعليم سكان الجنوب و أوضحت بذلك أبعاد التعليم الفرنسي في المنطقة بعد فتح المدرسة أمام الأهالي في الناطق الصحراوية ، وتجلى ذلك في تقرير السيد " أردايليو" ( Ardaillon ) مدير التربية الذي كشف عن مسح جديد للمدارس بالجنوب ، و التي بلغت سنة 1908 حوالي 47 مدرسة بها 76 قسما دراسيا . (22)



و الملاحظ أن السياسة التعليمية الفرنسية ركزت أكثر على استمالة الأهالي وتجلى كل ذلك في سياسة الارتقاء الثقافية التي امتازت بها مرحلة الحاكم العام جو نار الذي حكم الجزائر ثلاث مرات ، كما أن معظم المدارس الأولى التي فتحت أبوابها قد خصصت لتعليم الذكور باعتبار أن الفتاة الصحراوية ظلت ماكثة بالبيت و محافظة إلى حد كبير عكس فتاة المدينة ، وبذلك لم تتل القسط الوافر من التعليم عكس ما عرفته زميلاتها في المناطق الشمالية الحضرية .

وقد حاول المشرفون على سياسة التعليم الفرنسية استقدام بعض المعلمين الجزائريين ودمجهم في منظومة التعليم بحكم معرفتهم و علاقتهم بالأهالي وبالخصوص الذين تكونوا في مدرسة تكوين المعلمين ببوزريعة التي تأسست سنة 1865 قصد التحكم الجيد في تطبيق فكرة الاندماج عند طريقة المدرسة ، مثلما أكد ذلك جول فيري فيما بعد، و كما أشرنا سابقا و الجدول التالي يوضح نسبة التأطير في التعليم بالجنوب بين الفرنسيين و الجزائريين<sup>(23)</sup>

| نوع المدارس      | المعلمون         | العدد | المجموع |
|------------------|------------------|-------|---------|
| المدارس الفرنسية | معلمون فرنسيون   | 4     | 16      |
|                  | معلمات فرنسيات   | 12    |         |
| مدارس الأهالي    | معلمون فرنسيون   | 35    | 63      |
|                  | معلمات فرنسيات   | 8     |         |
|                  | مساعدون جزائريون | 16    |         |
|                  | ممرنون جزائريون  | 4     |         |

ومع مطلع سنة 1916 ظلت حركة التعليم على حالتها السابقة ، إذ قدرت المدارس بـ45 مدرسة بها حوالي 78 قسما موزعة بين أبناء الفرنسيين الذين استقدموا لإنجاح الاستيطان و الاستثمار ، وثلة من أبناء الجزائريين المحظوظين الذين كانت لهم قرابة بالإدارة الفرنسية ، رغم أن نصيبا لفتاة الجزائرية ظل محدودا جدا إذ قدرت حصتها 3 أقسام فقط.

كما عرف قطاع التعليم بالجنوب بدوره مشاكل عديدة تمثلت في نقص الأساتذة من جهة ، و قساوة الطقس والحرارة من جهة ثانية ، و كل ذلك عطل سير الدروس بمدارس عديدة منها مدارس " بريان" و "مسعد" و"سيدي عقبة" و "ورقلة" و غيرها من المدارس المتواجدة في قلب الصحراء و التي عاشت العزلة بسبب نقص المواصلات و نحوها من وسائل الاتصال .

**ثانيا : ردود الفعل الجزائرية :**

**أ / مقاطعة المدرسة الفرنسية :**

و بالرغم من تعدد المدارس في الجنوب إلا أنها ظلت شاغرة لنفور الطلبة منها ، و مقاطعتهم لها ، إذا اعتبروا تعليمها طوفانا خطيرا من الإلحاد في الدين ، بالإضافة إلى انتشار فكرة الابتعاد عن تعلم لغة المستعمر ، و تجلى ذلك عند العائلات المحافظة التي ظلت إلى أمد قريب تعيش على نظرتها هذه ، و لم تتأثر بالتغيرات الدخيلة عليها، و هذا عكس ما نلاحظه عند بعض سكان

الشمال الذين اندمجوا شيئاً فشيئاً مع المؤثرات الحضارية الدخيلة ، هذا بالإضافة إلى أن الحظوظ في مواصلة التعليم سواء في المستوى الثانوي أو العالي للشباب الجزائري كانت ضئيلة جداً مقارنة مع أبناء المعمرين، و لم يكن التعليم مجانياً باستثناء حصة صغيرة للطلبة المتفوقين.<sup>(24)</sup>

وقد عبر الشعب الجزائري عن تحديه للوجود الفرنسي بطريقة سلمية تجلت في رفضه للمدرسة الفرنسية ، و فضلت جموع من الشباب الالتحاق بالمراكز الثقافية الإسلامية في تونس و المغرب و المشرق العربي قصد تعزيز الروابط الفكرية و الثقافية للانتماء العربي الإسلامي المشترك.

و قد أتاحت هذه الهجرة إعادة الجسور الثقافية بين أطراف المشرق و المغرب العربيين و خصوصاً بعد تبلور أفكار الجامعة و نشاط المهاجرين الجزائريين و زيارة الشيخ محمد عبده للجزائر سنة 1903 و التي و صفها تلميذه رشيد رضا بقوله: « كان الأستاذ رحمة الله قد أخبرنا عند إرادته السفر إلى أوروبا في صيف 1903 انه ينوي السفر منها إلى تونس و الجزائر للوقوف على أحوال المسلمين في هذين القطرين و آثار الإسلام فيهما .<sup>(25)</sup> و من ثم فالزيارة لم تكن رحلة لخدمة فرنسا كما روج لها البعض .

و مما لا شك فيه أن منطقة الصحراء لم تكن بعيدة عن بداية النهضة التي لاحت أبقها في بعض مناطق الشمال ، واتضح ذلك جلياً

في منطقتي الزيبان و بني ميزاب اللتين كانتا تتوفران على جملة من العوامل المساعدة على العمل الإصلاحي أهمها العامل التاريخي، فالزيبان بها ضريح الصحابي الجليل عقبة بن نافع ، ومنطقة ميزاب ظلت على تمسكها بالمذهب الإباضي ، هذا فضلا على العنصر البشري المتمثل في بروز أسماء لامعة في حقل الإصلاح الديني و الاجتماعي و الثقافي . بالإضافة إلى بعد المنطقة النسبي جغرافيا من معاول الهدم الاستعمارية برغم خضوعها للاحتلال و خضوعها للحكم العسكري .

و كانت منطقة الزيبان إحدى هذه القلاع التي صمدت في وجه التغريب و الاندماج، و تعد مدينة بسكرة نموذجا حيا على ذلك الصمود ، إذ حافظت على العديد من مراكزها الثقافية و خصوصا مساجدها و دور تعليمها و مكاتبها التي ظلت عامرة بالروح الثقافية و الفكرية ، و بالتالي حافظت على الإشعاع الفكري و الحضاري التي عرفت به سابقا، بعد أن ساهمت في إيصال الحضارة العربية الإسلامية عبر مسالك التجارية إلى إفريقيا جنوب الصحراء .<sup>(26)</sup>

و برغم الضيم الاستعماري فقد حافظت بسكرة على العديد من مساجدها العتيقة و الأحباس التابعة لها والتي شجعت الجزائريين على الاستمرار في أداء شعائرهم الدينية و أنفقت عليهم في أمورهم الدينية و الدنيوية، و لو أن بعضها لم ينج من سياسة

الطم و استولت مديرية الشؤون الأهلية على بعض الأوقاف و الأملاك الخاصة و الكثير من الأحواش و أصبحت ملكا للدولة الفرنسية كما فعلت في النواحي الأخرى من البلاد . و لم تسلم المساجد هي الأخرى من سياسة المسخ الفرنسية و حولت بعضها إلى كنائس و مراكز عمومية . و حسب أحد التقارير الفرنسية التي قامت بمسح شامل لمساجد بسكرة مع نهاية القرن التاسع عشر، و بالضبط في سنة 1880 فإن المدينة ظلت عامرة بمساجدها ذات الطابع المعماري العربي الإسلامي و قد بلغت وقتها أكثر من 17 مسجدا وهي موزعة على أحياء المدينة . و من أسماء هذه المساجد نذكر :مسجد سيدي علي مقري، ومسجد سيدي منصور، و مسجد سيدي الجودي، و مسجد سيدي صحابي و مسجد سيدي داودي الزوكاني، و مسجد سيدي داودي السفلي، و مسجد سيدي زدال، و مسجد سيدي كوفي و مسجد سيدي بلقاسم، و مسجد سيدي صالح أحمد، و مسجد سيدي علي دليل، و مسجد سيدي حيواني، و مسجد سيدي إبراهيم عمري، و مسجد سيدي هان، و مسجد سيدي أمعمر، و مسجد سيدي موسى، و مسجد سيدي العاجن .<sup>(27)</sup>

#### ب/ كتابة العرائض :

و إذا كانت وظيفة هذه المساجد قد تعدت خدمة الثقافة و الفكر، فمن دون شك أنها قد حيدت عن هذا المجرى خلال

الاحتلال بعد أن حاولت الإدارة تدجينها و توظيف منابرها و الساهرين عليها لخدمة مصالحها ، و قد أقلق كل ذلك العديد من أعيان المنطقة ووجهوا الكثير من العرائض للسلطة الفرنسية و منها العريضة المؤرخة في 12 سبتمبر 1902 إلى الحاكم العام جونار يشتكون له فيها من الوضعية المزرية التي آلت إليها مساجدهم و التي لم تحترم مقدساتها من قبل فرنسا و يصفون ما تعرض له أحد مساجدهم بقولهم :» إنه كان جامعا كبيرا وكان سابقا له احترامات كثيرة من الدول السابقة ... و أنه جامع كبير من الجوامع في بسكرة منذ أزمنة كثيرة ، وأن فيه القائمين من الأئمة و المؤذنين و المدرسين و الطلبة الذين يقرؤون الأحزاب " (28).

و رغم تعدد هذه المراكز الثقافية ، هل تمكنت بالفعل من الصمود أمام الغزو الصليبي الفرنسي ؟ الواقع أنها لم تكن كذلك إذ بعدما سلطت عليها يد الاستعمار انحرفت عن أسمى وظائفها و اقتصرت على أداء الطقوس الدينية الجافة و الخالية من الذاتية الإسلامية و ذلك باعتراف مدير الشؤون الأهلية بيرك الذي يقول في ذلك الصدد : "إن خطأنا الفاحش في سياستنا الدينية منذ عشرين سنة هو أننا تساهلنا في وجود موظفين دينيين في المساجد يسيطر عليهم الجهل المركب و الطمع و عدم التهذيب ..و المبالغة في

الخضوع و الانقياد هي الشهادات الوحيدة التي يمكن أن يعتزوا بها"<sup>(29)</sup>.

ووقتها شعر أهالي بسكرة باحتقار الدين الإسلامي ، فأصابهم فراغ روحي تجلى في الرسائل العديدة الموجهة إلى الوالي العام بالعاصمة بول رو فوال الذي حكم الجزائر ما بين ( 1903/1901 ) و إلى جهات إدارية أخرى بالمقاطعة يلتمسون فيها العون و المساعدة ، خاصة بعد الإتلاف الذي أصاب أحد مساجدهم العتيقة . ولعلنا هنا نأتي ببعض المقتطفات من هذه الرسائل و هي عديدة حتى نوضح الإهانة الدينية التي ألمت بسكان المنطقة من جراء ذلك الإهمال المقصود من قبل الإدارة الفرنسية .

ففي رسالة مؤرخة بـ 10 جوان 1902 أرسلها الأهالي إلى الوالي العام بالعاصمة يقولون فيها : " ومن أجل ذلك حصل لنا نقص عظيم في ديننا و دنيانا ، و مع حياجنا و عجزنا لم نقدرنا على تعميره (مسجد سيدي تميم ) مثل غيره حيث أن عقاره قد بيع مع عقارات المساجد....."<sup>(30)</sup>.

و بنفس المعاناة تقدم سكان المنطقة لحاكم قسنطينة بشكوى مماثلة ، و العريضة مؤرخة في 29 سبتمبر 1906 و متضمنة للحالة المزرية التي آل إليها مسجد سيدي الجودي الذي أوشك على الانهيار وزالت معالمه ، و مما جاء في العريضة قولهم : (حيث أن بناءه قديم جدا له ما ينيف عنى القرنين...تتزل المطر إلا و تسيل من

أعلاه لأسفله ، ومن أجل ذلك يتعذر على المصلين أداء الصلاة فيه ، و نطلب من كريم فضلكم أن تتعم علينا بتجديده على أسلوب متقن و أساس محكم لا يحتاج بعده للإصلاح ...<sup>(31)</sup> و على الرغم من تعدد العرائض المرسله إلى الإدارة الاستعمارية فإنها لم تبال بها و باتت منطقة الزيبان و ما جاورها عشية الحرب العالمية الأولى تعيش في ضجر من أمرها بعدما أصبح زمام التحكم في شعوب المنطقة في قبضة شيوخ الزوايا و رجال الطرق الذين كثيرا ما عبروا عن ولائهم للسلطة الفرنسية . وهكذا كان شأن الجزائر كلها ففي منتصف العشرينيات كانت منطقة الزيبان تدين بديانة أشبه ما تكون بالوثنية التي قامت نصبها في الزوايا و هناك كانت تذهب الأرواح الكاسدة للتماس البركات و لاقتناء الحروز ذات الخوارق و المعجزات<sup>(32)</sup>

### ج/ الدعوة لتجديد الدين الإسلامي و محاربة الشعوذة:

و هكذا كان إلى جانب الاستعمار قوة لا تنل عنه نفوذا و سيطرة على الشعب الجزائري هي القوة الطرقية التي استحوذت على العامة الساذجة و سخرتها لمآربها و أغراضها الخاصة ، و ذلك ما وصفه الشيخ ابو بكر جابر الجزائري<sup>(33)</sup> لحالة المجتمع في منطقة الزيبان مع نهاية الحرب بقوله : "كنا و الله لا يكاد يعيد الله بما فرض في غسق الليل من صلاة المغرب و العشاء حتى نرى الرجال و النساء و الأطفال يتسللون من بيوتهم ، كل واحد منهم



يقصد مكانا غير الذي يقصده الآخر، و قلما تتحد العائلة الواحدة على المذهب الواحد ... ثم عند ذلك يضربون الدفوف، و يصفقون فيأخذهم الطرب فيرقصون ، وهم يصيحون بأصوات تزعج النائم المسكين..." (34)

كما صور ذلك الوضع البائس الشيخ مولود الزريبي (35) بعد رجوعه من مصر عشية نهاية الحرب العالمية الأولى ، وهو متشبع بالتكوين الديني و الفكر السلفي الذي وجدته في الأزهر الشريف ولم يألّف وقتها الحالة التعسة التي آل إليها الوضع الديني في المنطقة التي عاد إليها، بعد أن عششت بها عقائد الضلال و الانحطاط الفكري و الأخلاقي و قد أشار الزريبي إلى تلك الحالة بقوله : " ظهر في القطر الجزائري هذا الزمان بدع كثيرة و اعتقادات فاسدة، أقام بها أناس يزعمون علوما وهم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا يأمرون العوام بالاستمرار على عوا ندهم المحدثّة الشنيعة التي هي مصادمة للدين القويم" (36)

و يبدو أن الشيخ الزريبي قد تألم لما وجد عليه وضعيّة الزيبان المزرية و هي تنهج نهج الفاسدين ، و اتصف أهلها بالسيئة والنفاق و الشقاق، و تلك المفاسد سادت بين أفراد المجتمع ، و بالمقابل انعدام الروح الجماعية بين أفراد القرية الواحدة و من ذلك وصفه لبلدة زريبة الوادي التي أسماها "بالبلدة التعسة " و أن أهلها أشد جهلا ممن سواهم و أقرب إلى المنكرات ممن عداهم ، وكانوا

مقسمين إلى فرق و شيع برغم محاولة الزريبي الإصلاحية لجمع شملهم و إرشادهم لبناء مسجد جامع يؤم الجميع وقد استشار في ذلك كل الأطراف المتنافرة و لبث الطلب رغم رفض بعضها و مكر أطراف أخرى منها .

و الظاهر أن الزريبي قد أخفق في مشروعه الخيري هذا ، ولم يكتب له النجاح بعد ردة أهل المنطقة و بقي المسجد في الهباء ولم يكتمل بناؤه ، وهو من غير سقف يزينه و لا معين يعينه ، ومن ثم عبر هذا الأخير عن سخطه تجاه قومه بقوله :

ياقوم مالي أراكم في جهالتكم ❖ كقوم موسى طفو فهاهم صغر.

إذا رأوا حبر علم استفزوا به ❖ ولو آتاهم به عثمان أو عمر .

هذا الذي ترك العلوم خامدة ❖ وأفسد القطر حتى عمه الضجر.

والعقل تصلحه العلوم و الحكم ❖ وليس تصلحه الأصال و البكر<sup>(37)</sup>.

و لم يتوقف العمل السلبي الذي أبدته بعض الأطراف الطرقية عند هذا الحد ، بل نجدها قد ناصرت و تفاعلت أيضا مع الوجود الاستعماري حتى خلال مرحلة التوسع و الاستيطان، و لعل من أمثلة ذلك ما قدمه مقدم الطريقة القادرية بورقلة محمد الطيب حين رافق المستكشف الفرنسي فلامان إلى منطقة تيديكلت سنة 1899 و معه عشرون شخصا مسلحين لحماية القافلة ، كما تذكر المصادر الفرنسية أن الحاكم العام كامبون قد وظف هو بدوره هذه الطريقة للتوسع في الصحراء و قتل المقدم محمد الطيب في إحدى هذه المعارك .و حسب ما ذكره الجنرال لاروك سنة 1879 فإن

القادرية كانت لها علاقات جيدة مع الفرنسيين و قدمت لهم خدمات جليلة في الصحراء سواء من ناحية توفير الهدوء أو من ناحية رفضها لتسرب الطريقة السنوسية من الشرق و الجنوب لكونها رافضة للوجود الفرنسي بالمنطقة<sup>(38)</sup>.

و لعل الشيء الذي لا يختلف فيه اثنان هو أن الإدارة الفرنسية سعت لتمزيق الطرق الصوفية سواء أكانت قادرية أو تجانية و ضرب بعضها ببعض ، و لم تكن تحبذ أية طريقة بقدر ما كانت تبحث على مستقبلها في الصحراء ، و كانوا دوما يستفيدون من رجال الطرق و إضعافهم جميعا بل وظفوها في الجوسسة و كسب المزيد من المعلومات حول المناطق الراضية للفرنسيين . برغم الكثير من الانتفاضات الشعبية المحلية التي رفضت الوجود الفرنسي في قلب الصحراء منها ثورة بن التومي بوشوشة في 5 ماي سنة 1870 و معركة لفقيقرة في 10 أكتوبر سنة 1899 بقيادة أبلي جودة الحاج المهدي ، و معركة الدغامشة في 12 أكتوبر من سنة 1899 بقيادة مولاي عبد الله الرقاني<sup>(39)</sup>.

د / الاهتمام بحركة التعليم العربي ونشر الوعي الثقافي والسياسي و مما لاشك فيه أن سكان منطقة قلب الصحراء برغم خضوع منطقتهم للاحتلال الفرنسي ، فإنهم ظلوا واثقين في أنفسهم وقاوموا الغزو بوسائل مختلفة ، و عبروا عن صمودهم ونشروا ثقافة المقاومة منذ مطلع القرن الماضي ، و انتشر الشعر الشعبي و كثر

مداح الأسواق ، و في هذا الصدد يذكر عبد المجيد مزيان أن للشعر الشعبي أهميته القصوى في تفعيل القضية الوطنية بقوله : " و بطولة هؤلاء الشعراء الشعبيين كانت تتلخص في صرختهم الثورية حينما انهارت كل مقاومة...هذا و تعد نوعية الإنتاج الملحمي غير قابلة لمقاييس النقد المنطقي أو التاريخي لأن غرضها لم يكن تثقيف الناس ثقافة دقيقة ، و لكنها كانت ترمي إلى إثارة الحماس و بعث الأمل في الأمة .. " (40) و دائما في نفس الاهتمام إذ يذكر أحد المهتمين بتاريخ المنطقة و المدعو الشيخ بن الدين عبد الرحمان همول أن حركة التربية و التعليم لم تنقطع عن سكان المنطقة برغم الاحتلال ، و كانت ممثلة في التعليم المتنقل بداخل الخيم ، و يعد الأديب علي بن قويدر أحد الرواد الأوائل الذين نشروا هذا النوع من التعليم بين صبيان الصحراء ، بل يعود إليه الفضل الكبير في تأسيس الحركة الشبانية و الكشفية التي كانت المدرسة الأولى و الحقيقية التي نمت وازع الوعي الوطني في المنطقة و كانت الأناشيد تردد دوما على ألسنة الشباب حول خدمة الوطن و الذود عنه ، و منها قولهم :

نحن كاشف البلاد ❖ خير ركن للوطن

في طريق الحق نمشو ❖ لا نلاهي بالمحال

النية تسبق بالعمل ❖ و الحركة و القصد يوصل (41)

و بعد نهاية الحرب العالمية الأولى لم تتأخر الأقاليم الصحراوية كغيرها من المناطق الجزائرية الأخرى على مسانيرة بداية مظاهر اليقظة الفكرية و الدينية و حتى الاجتماعية منها ، و يرجع الفضل في ذلك لعامل الوحدة بين الشمال و الجنوب في القرع و الفرح و الأخبار المتواترة على سكان الصحراء عبر القوافل التجارية الآتية من مناطق الشمال و المشرق، هذا فضلا على عودة مجموعة من الطلبة و علماء المنطقة الذين كانوا خارج الوطن سواء في المشرق العربي كمهاجرين أو كطلبة علم أو كحجاج إلى بيت الله الحرام و من ثمة أخذوا على عاتقهم العمل لبعث حركة وطنية جديدة حين عودتهم إلى أرض الوطن، و هذه الحركة لم تكن مألوفة لديهم في السابق، و لكنهم قد عايشوا بعض حيثياتها هناك، بل و أسهموا فيها بالتوسط الوفير في العديد من المرات.

و لعل من بين هؤلاء الرجال الذين أسهموا في هذه اليقظة الوطنية نذكر على سبيل المثال الأمير خالد الذي بدأ حياة سياسية هامة في الشمال ، و الذي ذكرت عنه التقارير الفرنسية أنه وزع نشرة تحريضية صادرة عن جمعية الأخوة على سكان الصحراء و وجدت رواجها بين الأعيان و هي تشكل خطورة على فرنسا .<sup>(42)</sup> هذا الأخير الذي لم تقطع مراسلاته و أخباره مع الجزائريين حتى وفاته سنة 1936، بالإضافة إلى وجوه أخرى من العلماء منهم المولود الزريبي السالف الذكر، و عبد الرحمان الديسي، و الشيخ

إبراهيم أطفيش، و أبو اليقظان، و إبراهيم بيوض، و الحاج صالح بن عمر، و إبراهيم بن بكير، و بكلي بن عمر، و داود بن يوسف، و الحاج عمر بن يحيى، و الشيخ محمد الطرابلسي، والطيب العقبي، و محمد خير الدين، و أحمد بن الدراجي، و الهادي السنوسي الزاهري، و السعيد الزاهري، و عمر بن بسكر، و الشيخ عبد الحفيظ الهاشمي الطولقي الذي نقل عمله إلى قسنطينة<sup>(43)</sup> من دون أن ننسى أيضا الأمين العمودي، و محمد العيد آل خليفة و غيرهم من الرعيل الذي أسهم في اليقظة الفكرية و الدينية و الوطنية<sup>(44)</sup>.

و قد وظف هذا الجيل الأول من العلماء ثقافة الصمود و التصدي لردع سياسة المسخ الاستعمارية، و ذلك من خلال استغلال وظيفة المسجد و إلقاء الخطب من أعلى المنابر وخلق الدروس و الوعظ و إرشاد الرعية، و تجلّى ذلك في حركة الإصلاح الإسلامية التي دعا إليها العقبي و صحبه، و المستوحاة من العقيدة السلفية السمحة التي تطالب بالعودة بالدين القويم إلى نهجه القويم الخالي من البدع و الخرافات، وكذا مخاطبة العقل كي يصحى من غفلته، و قد وصف أنور الجندي تلك الظاهرة الصحية التي بدأها العقبي في منطقة الزيبان و ما جاورها بقوله: "شاعر و داعية من أبرز علماء الجمعية عاش في الشرق و عاد إلى الجزائر، و كان

يتأهب لتحقيق مشروع خلاصته تجديد الإسلام في حدود القرآن و تنقيته بما ألصق به من البدع .." (45) .

ومما لاشك فيه أن حركة العقبي قد وجدت الإقبال الكبير من أهالي الزيبان و ما جاورها لأنه خاطبهم لما يحيي ضمائرهم ، و لم تتوقف صحوة هذا المصلح عند المقبلين على مسجد سيدي منصور في بسكرة السفلى ، بل تعداه إلى جامع بركات في الحي القديم من المدينة ، و امتدت دعوة الرجل لتصل قلب بسكرة الجديدة مقر تواجد المعمرين (46)

#### هـ / تأسيس النوادي و الجمعيات :

وقد تنوعت وسائل العمل لدى النخبة الجزائرية وقتئذ، و فتحت مدارس للتعليم العربي و تحفيظ القرآن الكريم ، كما عرفت المنطقة ميلاد نوادي ثقافية ساهمت هي بدورها في تفعيل الحقل الثقافي و المعرفي، و من بين هذه النوادي التي ظهرت في المنطقة نادي شباب الإخاء ببسكرة سنة 1927 و نادي الإصلاح بغرداية سنة 1928، و قد أصبحت هذه النوادي تضاهي في مكانتها العلمية و الترفيهية بعض النوادي التي تأسست في الشمال كنادي التقدم بعنابة سنة 1903 و نادي صالح باي بقسنطينة سنة 1908، و نادي الشبيبة الإسلامية بتلمسان سنة 1921 و غيرهم من النوادي التي أثرت الحياة الفكرية و السياسية في جزائر بداية القرن العشرين (47) .

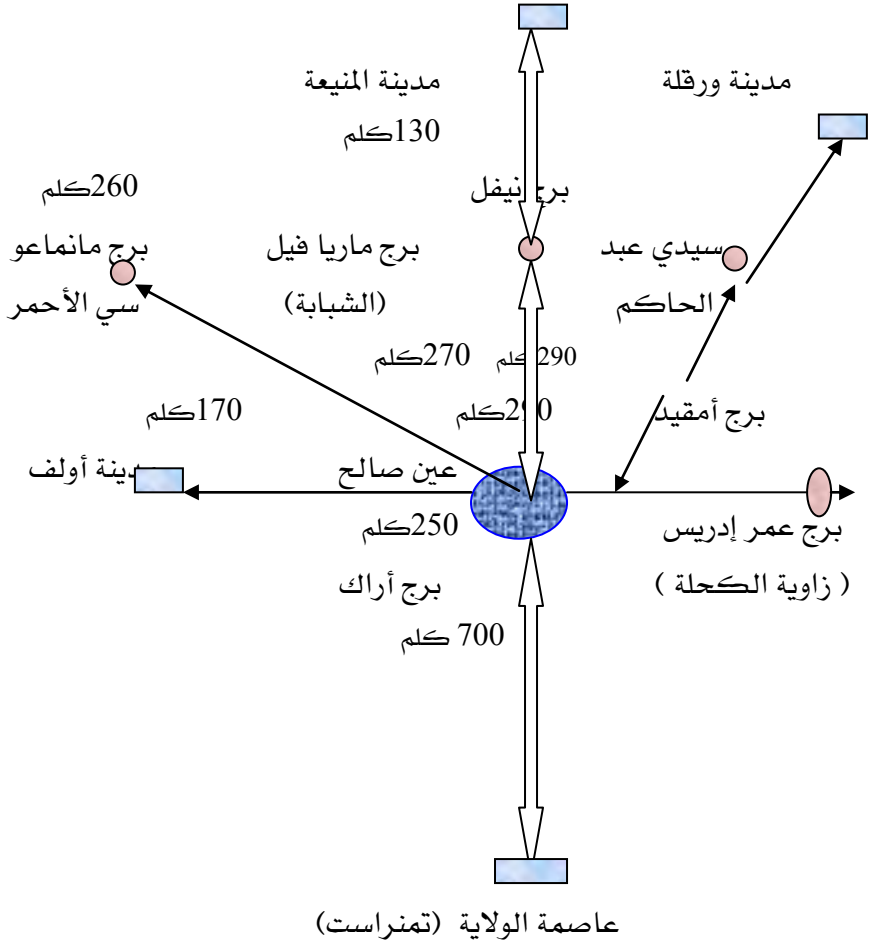
و لعل الدارس للحياة الثقافية في منطقة الصحراء خلال هذه المرحلة يجدها ظاهرة معبرة عن بداية الإحساس لإنماء الوازع الوطني في نفوس أهل المنطقة الذين ذاقوا هم بدورهم مآسي التواجد الفرنسي بالمنطقة بعد عملية التوسع في الصحراء، و سقوط مدينة عين صالح التي تعد قلب الصحراء باعتبارها تتوسط أقاليم الجزائر، و ما ترتب عن ذلك التوسع الفرنسي بعد انهزام التوارق في ألهو قار سنة 1916.<sup>(48)</sup>

و قد مكن الفرنسيون لأنفسهم في المنطقة بعد عملية التحصين التي قاموا بها، و أسسوا لذلك العديد من الأبراج و زودوها عسكريا حتى تضمن لهم بعض الاستقرار، و تحميهم من الغارات التي كانت تشن عليهم من حين لآخر من قبل المقاومة الشعبية، فعلى سبيل المثال بنى الفرنسيون حوالي خمسة أبراج و هي برج أمقيد باتجاه زاوية الكحلة و برج أراك باتجاه تامنراست و برج مانماعو سي الأحمر باتجاه تيميمون و مدينة أولف ، و برج ماريا فيل "الشبابة" باتجاه مدينة غرداية و المنيعة، و برج نيفل باتجاه مدينة ورقلة مثلما هو في هذا الرسم التخطيطي الذي بناه الفرنسيون بعد سقوط مدينة عين صالح سنة 1899 و كان الغرض منه هو عزل المنطقة عن باقي المناطق الأخرى، و تشديد الرقابة و الحراسة على السكان خلال تنقلاتهم، و من ثم عدم اختلاطهم بباقي سكان الواحات الأخرى .



و يعد هذا الإجراء الردعي الفرنسي عاملا حاسما في إجهاض الانتفاضة الشعبية بالمنطقة و قد استفادت منه فرنسا فيما بعد خلال اندلاع الثورة الباركة و طبقت تقريبا نفس التجربة على الحدود الشرقية و الغربية للجزائر، و قامت ببناء جدار الأسلاك الشائكة و المكهربة و زرعت بها الألغام لخنق الثورة و منع تسرب المجاهدين و الإمدادات من الخارج لخدمة الثورة<sup>(49)</sup> و مما سبق ذكره نجد أن النهضة الجزائرية في تخوم الصحراء لم تكن غربية على الشمال و لا على النهضة التي شهدتها الجارة تونس و حتى المغرب الأقصى ، لأن الجنوب الغربي من الجزائر كانت له ارتباطات و وثيقة بدور التعليم في المغرب و بالخصوص في جامع القرويين بفاس، و كل ذلك أثر بالإيجاب على الحركة الوطنية بالجنوب .

رسم تخطيطي لأهم الأبراج التي شيدها فرنسا  
بعد سقوط مدينة عين صالح



و قد عبر الأديب الهادي السنوسي عن الأجواء التي أدخلتها اليقظة الفكرية على المنطقة و بالخصوص النشاط الذي آل إليه نادي الشباب ببسكرة الذي أثرى الحياة الفكرية و عمق من الذوق الأدبي بين جموع الشباب ، و من ذلك قوله :

نادي الشبيبة قد تملك خاطري ❖ و البلب الشادي استفز مشاعري و القلب عاطفة إذا أيقظتها ❖ هيجت عاطفة اللبيب الشاعر .  
أشبيبة النادي و فتیان الهدى ❖ و المائلين بخاطري و بناظري .<sup>(50)</sup>

كما عرفت المنطقة أيضا ميلاد العديد من الجمعيات الدينية و الثقافية التي ساهمت في تعميق الوعي بين سكان المنطقة ، و من بين هذه الجمعيات الجمعية الخيرية بالأغواط التي تأسست سنة 1920 ، و جمعية الشباب بغرداية سنة 1926 ، و الجمعية الخيرية و جمعية الفتح ببيريان سنة 1927<sup>(51)</sup>

#### و/ ميلاد الصحافة العربية :

و إذا كان شمال الجزائر قد عرف مع بداية القرن العشرين ميلاد حركة صحفية و مطبعية ، فإن الجنوب هو بدوره لم يتخل عن هذه الحركة الثقافية ، و ظهرت جريدة صدى الصحراء لصاحبها أحمد بن العابد العقبي سنة 1925 ببسكرة ، و جريدة وادي ميزاب لصاحبها أبو اليقظان بغرداية سنة 1926 ، و جريدة الحق لصاحبها علي بن موسى العقبي ببسكرة ، و جريدة الإصلاح لصاحبها الطيب العقبي سنة 1927 بنفس المنطقة ، و كانت هذه

الجرائد منابر حية للعديد من الأقلام الجزائرية التي ساهمت من خلالها على نشر ثقافة اليقظة و التعمق في قضايا الوطن ، و إثراء الساحة الأدبية و الفكرية و نفض الغبار على ثقافة النسيان<sup>(52)</sup> خصوصا و أن أعيان المنطقة و مصلحيها أسهموا هم أيضا خلال تلك الفترة في دعم و مساعدة العقبي على شراء مطبعة الإصلاح التي بدون شك أنها دعمت حركة النشر برغم المصاعب العديدة التي اعترت سبيلها في عملية النشر و التبليغ<sup>(53)</sup>.

و أصبحت ثقافة الصمود واضحة عند سكان المنطقة ، و ساعدهم في ذلك التطور الفكري و الأدبي و الإصلاح الذي عايشوه ، و جسدوا ذلك الوعي في مرحلة الكتابة و التدوين و التأليف و اتضح ذلك في ظهور كتاب شعراء الجزائر في العصر الحاضر للهادي السنوسي الزاهري بجزأيه الأول و الثاني سنتي 1926 و 1927 ، و ضم التأليف العديد من تراجم الأدباء و الشعراء و رجال الفكر و الإصلاح اللذين أسهموا في بعث الحياة الفكرية و الأدبية و الروحية في النفوس ، و من ثم يعد هذا المولود من المصادر النفيسة في تاريخ الجزائر الثقاية خلال العشرينيات من القرن الماضي .

و قد ثمن سكان بسكرة هذا المولود الجديد ، و أمدوه بالعون و قاموا له احتفالا ناجحا ، ففي 4 فيفري من سنة 1927 قام أدباء بسكرة و تجارها و أعيانها حفلا تكريميا على شرف صاحب

الكتاب بجامع بكار ببسكرة ، و كان الحفل مميزا و أشرف عليه الأمين العمودي، و تبارى العلماء و الشعراء و الأدباء بالمناسبة و ألقى السعيد الزاهري قصيدة بعنوان "ريح الجزائر" احتوت على 44 بيتا جاء في بعض أبياتها قوله :

ما كان لي من حاجة و مراد ❖ ألا تيقظ أمتي و بلادي  
هبت جميع الناس من نوم و لم ❖ تزل الجزائر في لذيذ رقاد  
هذي الحوادث أيقظت من هولها ❖ حتى الجماد فعاد غير جماد  
ما للجزائر لا تحرك ساكنا ❖ أفلم يكن أبنائها بعباد  
هل كان في هذه الجزائر شاعر ❖ يبكي على الأدباء و  
الأجداد (54)

و كانت المناسبة هامة للقاء العديد من رجال الفكر و الثقافة ، و ألقى العديد من شعراء المنطقة قصائد هامة عبرت عن رؤية جديدة في حقل الإصلاح و خدمة الدين و الوطن ، و من ذلك ما جاء في قول الشاعر محمد العيد آل خليفة قوله :

إنها نهضة تحاكي ظبي الهن ❖ د مضاء و تشبه البرق طيا  
اهتماما أظهرت أم كهرباء ❖ و اعتزاما أشهرت أم سمهريا .  
كما تطعم الحفل بمداخلات عديدة منها مداخلة الشيخ عمر العنق و الطاهر بن دحمان الونيسي و الطيب العقبي هذا الأخير الذي لخص مداخلته أحد كتاب جريدة الشهاب بقوله : " لن أسمع في عمري مثلها من خطباء العربية اليوم ، أفاض فيها عن العلم

و القراءة إفاضة لم يدع معها مجالاً لقائل بعده ، و لقد رأيتَه خطيباً بلسانه و خطيباً بلهجته و صوته ، و خطيباً بهيئته و بزيه العربي و خطيباً بحركاته و سكناته ، جعل موضوع خطبته " العلم خير منتقى " أسهب في ذلك إسهاباً استحلاه الناس و استعذبه حتى ملك به عليهم عواطفهم و أخذ عليهم مشاعرهم حتى نسوا أنفسهم و ظنوا أن لا ملجأ إلا للعلم . " (55)

### الخاتمة :

و مما سبق ذكره نخلص إلى القول أن المنطقة الصحراوية برغم ظروفها القاسية و بعدها عن منطقة الشمال ، إلا أنها لم تكن بعيدة عن ركب الأحداث و قاومت الاستعمار بوسائل قتالية مثلما اتضح في المقاومات الشعبية ، كما رفضت أيضاً التواجد الفرنسي و حاربتَه بالمقاومة الفكرية بعدما حافظت على ذاتيتها و مقوماتها الحضارية ، و أضحت منطقة الصحراء على العموم و إقليم الزيبان و ما جاوره على الخصوص قلعة محصنة في وجه التغريب و الاستمالة ، و تفاعلت مع بداية اليقظة الجزائرية مع مطلع القرن العشرين بل كانت السباقة في بعض ميادين الإصلاح ، و لذلك فلا غرابة أن نجد الشيخ بن باديس يبارك ذلك العمل الوطني و الإصلاحية الذي يعد العقبي أحد مؤسسيه بقوله : " حياك الله و أيدك بأسيف السنة و علم الموحدين ، و جزاك الله أحسن الجزاء عن نفسك و عن دينك و عن إخوانك السلفيين المصلحين ، ها نحن

كلنا معك في موقفك صفا واحدا ندعو دعوتك و نباهل مباحلتك  
و نؤازرك الله و بالله ... " (56)

## الإحالات المعتمد عليها في الدراسة

- (1) فلاترس أحد ضباط البعثة الفرنسية التي كلفت سنة 1879 بمسؤولية اكتشاف طريق الصحراء (الجزائر ، النيجر ، تشاد) وكانت البعثة مكونة من 150 عضوا ، و قد انطلقت من مدينة ورقلة و تمكنت من وضع خريطة طوبوغرافية للمنطقة برغم مقاومة التوارق ، و ظلت البعثة بين مد و جزر حتى لقي قائد الحملة و صحبه حتفهم على أيدي المقاومة و ذلك بتاريخ 16 فيفري من سنة 1881 .
- للمزيد أنظر : يحي بوعزير ، اهتمامات الفرنسيين بجنوب الجزائر و الصحراء ، مجلة الثقافة ، عدد 57 ، ماي جوان 1980 ، ص 25 .
- (2) للمزيد أكثر حول هذه الانتفاضات الشعبية أنظر : أبو القاسم سعد الله ، الحركة الوطنية الجزائرية 1900/1830 ، الجزء الأول ، ط 1 ، (دار الغرب الإسلامي بيروت 1992
- (3) Charles Lu taud , le gouverneur général , exposé sur la situation , générale du territoire de l'Algérie , Alger 1912 p 4 .
- (4) Gouverneur général de l'Algérie , Cent Ans de colonisation française en Algérie Alger p. 14 .
- (5) توفيق المدني ، الثورات الجزائرية عبر التاريخ ، مجلة المعرفة ، عدد 6 ، نوفمبر 1963 ، ص 7 .
- (6) Charles Jonnard; Exposé de la situation générale du territoire du Sud de l'Algérie ( Alger 1908/1919.) p 65 .
- (7) جريدة صوت الجزائر ، عدد 4 ، السنة الأولى ، الموافق ل 2 جانفي 1954 .
- (8) Jonnard ; OP ; CIT ; p 50 .
- (9) Mahfoud Kaddache ; la vie politique à Alger de 1919 a 1939, S.N .E. D, Alger, 1970 p. 32 .
- (10) Jonnard, op. cit . p. 71 .
- (11) Ibid . p 83 .
- (12) Ducellier .L .Les blés du Sahara , Imprimerie Algérienne , Alger, 1920 p. 19 .
- (13) القس دوفوكو من أهم الشخصيات الدينية الفرنسية التي تولت مهمة نشر المسيحية في بلاد الشام و المغرب العربي ، خاض مغامرة هامة في الصحراء الجزائرية ووصل حتى منطقة تامنراست ، و نشر هذا الأخير المسيحية بوسائل مختلفة بين التوارق لمدة تفوق 11



سنة ، لكن حثفه كان على أيدي من بلغهم مسيحيته ، و كان ذلك يوم فاتح ديسمبر من سنة 1916 .

للمزيد أنظر : . Ducellier , Les blés du Sahara, p 28

(14) أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، الجزء الرابع ، ط 1 ، ( دار الغرب الإسلامي بيروت 1998 ) ص 427 .

(15) André Canac ;La justice musulmane et le juge de paix en Algérie

( La Maison des livres Alger, 1958 ) p63 .

(16) Jonnard , Exposé , p. 96 .

(17) عبد القادر جفلول ، الاستعمار و الصراعات الثقافية في الجزائر ، ترجمة سليم قسطون ، ط 1 ، ( دار الحداثة بيروت 1984 ) ص 49 .

(18) Jonnard , op.cit , p 189 .

(19) بسام العسلي ، عبد الحميد بن باديس و بناء قاعدة الثورة الجزائرية ، ط 1 ، دار النفائس بيروت 1982 ) ص 48 .

(20) Ahmed Taleb Ibrahim , de la décolonisation à la révolution culturelle ,  
Sned, Alger, 1973,P.12.

(21) Fanny Colonna , Instituteurs algériens 1883/1939. ( Office des Publications  
Universitaires Alger 1975 ) p 107

(22) Jonnard, Exposé , p 85 .

(23)Ibiden.

(24) عبد الحميد زوزو ، الهجرة و دورها في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين  
1919 / 1939 ، ط 2 ، ( المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1985 ) ص 49.

(25) رشيد رضا ، تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده ، ط 1 ، الجزء الأول ، ( مطبعة  
المنار مصر 1931 ) ص 870.

(26) أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، الجزء الثالث ، ط 1 ، ( دار الغرب  
الإسلامي بيروت 1998 ) ص 47.

(27) رسالة مخطوطة ، أرشيف المؤسسة الوطنية للوثائق ، الجزائر .  
(28) نفسه .

(29) صالح خريفي ، المدخل إلى الأدب الجزائري الحديث ، ط 1 ، الشركة الوطنية  
للنشر و التوزيع الجزائر 1983 ) ص 51 .

(30) رسالة مخطوطة ، المؤسسة الوطنية للوثائق ، الجزائر.

- (31) نفسه .
- (32) مالك بن نبي ، شروط النهضة ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، ط 3 ، دار الفكر ( 1969 ) ص 37 .
- (33) أبو بكر جابر الجزائري رجل مصلح وهو من مواليد منطقة ليانة بطولقة بضواحي بسكرة ، عاصر الحركة الإصلاحية في منطقتة و في الجزائر العاصمة و خدمها قلبا و قالبا وساهم في حركة التربية و التعليم بمدرسة الشبيبة الإسلامية ، وكان من المقربين للشيخ العقبي ، و نشط معه حركة شباب الموحدين ، كما ساهم أيضا في تدعيم جرائد الدعوة و اللواء و القبس ، وفضل العيش في الحجاز ، و له عدة مؤلفات أهمها منهاج المسلم .
- للمزيد أنظر : أرشيف ما وراء البحار بفرنسا ، رقم : 15 H 15 .
- (34) جريدة الإصلاح ، عدد 49 ، السنة العشرون ، الموافق ل 17 ماي 1947 .
- (35) المولود الزريبي 1925/1897 من مواليد زربية الوادي بضواحي الزيبان ، درس مبادئ العلوم ببلدته ، ثم سافر إلى مصر و درس في الأزهر ، و نال الإجازة العلمية ، و بعد الحرب الأولى عاد إلى وطنه ، و باشر الإصلاح بها لكن أعين الفساد كانت بالمرصاد لعمله ، و من وثم انتقل إلى العاصمة و تولى تحرير جريدة الصديق التي كان يصدرها محمد بن بكير منذ سنة 1920 ، كما تولى التدريس بالجامع الكبير بالعاصمة ، و كان يتولى أمور الفقه المالكي .
- للمزيد أنظر : محمد الهادي السنوسي الزاهري ، شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، الجزء الثاني ، ( مطبعة النهضة التونسية 1927 ) ص 98 .
- (36) مولود الزريبي ، بذور الإفهام أو شمس الأحلام على عقائد ابن عاشر الحبر الهمام ( المطبعة التونسية 1926 ) ص 61 .
- (37) الزريبي ، نفس المصدر ، ص 25 .
- (38) سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 4 ، ص 327 .
- (39) مقابلة مع الشيخ بن الدين عبد الرحمان همول ، و هو من المهتمين بتاريخ الصحراء خلال الملتقى الوطني حول المقاومة الشعبية للاحتلال الفرنسي للصحراء و الذي احتضنته مدينة عين صالح ما بين 22/24 ديسمبر 1997 .

- (40) عبد المجيد مزيان ، مظاهر المقاومة في الثقافة الجزائرية ، مجلة الأصالة ، العدد 8 ماي جوان 1972 ، ص 155.
- (41) من قصيدة شعرية أعطاني أيها الشيخ همول خلال حضور فعاليات الملتقى السالف الذكر .
- (42) أرشيف ما وراء البحار بفرنسا ، رقم : 6 H 12
- (43) للمزيد حول مساهمة الرجل في العمل الإصلاحي و الصحفي راجع : أحمد مريوش ، من أعلام الجزائر في القرن العشرين : الشيخ عبد الحفيظ الهاشمي الطولقي ، مجلة المبرز ، العدد 8 ، الموافق لجويلية ديسمبر 1996 ، ص 69 .
- (44) أحمد مريوش ، النهضة الفكرية و الحركة الإصلاحية في الزيبان خلال العشرينيات من القرن الحالي ، مجلة المبرز ، العدد 10 ، جويلية سبتمبر 1998 ، ص 88.
- (45) أنور الجندي ، الفكر و الثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا .
- (46) أحمد مريوش ، الشيخ الطيب العقبي و دوره في الحركة الوطنية الجزائرية ، رسالة ماجستير لا تزال مخطوطة ، جامعة الجزائر 1993 .
- (47) Charles Robert Agéron ; Les algériens musulmans et la France 1871/ 1919 T 2 ( Presse Universitaires de France 1968 ) p 1036 .
- (48) يحي بوعزيز ، اهتمامات الفرنسيين بجنوب الجزائر و الصحراء ، مجلة الثقافة ، العدد 57 ، ماي جوان 1980 ، ص 25 .
- (49) أحمد مريوش ، الأسلاك الشائكة في الجزائر هل هي إستراتيجية جديدة لخنق الثورة أم هي اعتراف رسمي بنجاحها ، دراسة نشرت في سلسلة الملتقيات التي أشرف عليها المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر .
- (50) الزاهري ، شعراء الجزائر ، ج 2 ، ص 179 .
- (51) محمد علي دبو ، نهضة الجزائر الحديثة و ثورتها المباركة ، ج 3 ، ( المطبعة العربية الجزائر 1969 ) ص 233.
- (52) محمد ناصر ، الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1939 ، ط 1 ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر 1980 .
- (53) محمد خير الدين ، مذكرات الشيخ خير الدين ، ج 1 ، ( مطبعة دحلب الجزائر ) ص 91 .
- (54) الزاهري ، شعراء الجزائر ، ج 2 ، ص 174 .

- (55) مريوش ، النهضة الفكرية ، ص 95 .  
(56) عمار طالبي ، ابن باديس حياته وآثاره ، ج 3 ، ( الشركة الجزائرية للتأليف  
و الترجمة و الطباعة و التوزيع و النشر الجزائر 1968 ) ص 463 .